

الإصلاح الديني الحديث بأوروبا مفهوما ومسارا تاريخيا: (مقاربة تفهيمية نقدية)

بسام الجمل
باحث تونسي



قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة

نروم في هذه المداخلة النظر في موضوع الإصلاح الديني بأوروبا، ابتداء من القرن السادس عشر، وذلك من جهتي المفهوم والمسار التاريخي الذي قطعه الإصلاح الديني الحديث. وليس همنا من ذلك كله الاكتفاء بعرض تاريخي لمراحل الإصلاح الديني الأوروبي وسرد أحداثه، بل قصدنا تقييم حدث الإصلاح الديني، وذلك بتفهم دواعيه الصريحة والضمنية من جهة، وتفحص أسسه ومنعرجاته الكبرى من جهة أخرى، فضلا عن تفحص ما ترتب عليه من نتائج وما تولد منه من ردود فعل الكنيسة الكاثوليكية الرومانية إزاءه. وإذا ما تحقق ذلك، أمكن لنا لاحقا تعيين حدود الإصلاح الديني البروتستاني ببيان ما ارتكبه من أخطاء وما حفّ به من قصور في التصور والمنهج. والرهان المعقود من مواطن الاهتمام هذه جميعها استخلاص الدرس من تجربة الإصلاح الديني الأوروبي الحديث، لعل ذلك يساعد المهتمين بالإصلاح الديني على تلمس أقوم المسالك الموصلة إلى تحقيقه في المجال العربي والإسلامي في مرحلة تاريخية حرجة، أعقبت قيام "ثورات" بعدة بلدان عربية تحوّل، بلا شك، إلى النظر في قضية الإصلاح الديني بعد ما اصطلح على تسميته بـ"الربيع العربي".

1- في مفهوم الإصلاح:

حسب القاموس الفرنسي "لاروس" (Larousse) يعني الإصلاح «كلّ تغيير عميق وجذريّ لشيء ما، وبالخصوص لمؤسسة ما قصد تحسين أداؤها (...) والإصلاح هو عودة نظام ديني للنظر في قواعده الأولى»¹. وكلمة "إصلاح" الفرنسية (réforme) متأتية من اللاتينية، وتدّل على معنى "إعادة البناء" وعلى "التشكيل من جديد".

ولكن بعد حركة الإصلاح الديني التي عرفتها أوروبا بداية من القرن السادس عشر تمحضت كلمة "إصلاح" (Réforme) للدلالة على "الإصلاح الديني" تحديدا. وفي هذا السياق، فإنّ الإصلاح الديني² حسب مارتن لوثر (Martin Luther) (تـ 1546) يعني وضع حدّ فاصل بين المناظرة الثنائية التي يمثلها كلّ من "الإمبراطور" و"البابا" من أجل تسييج مجال تحرّك كلّ منهما، وهو ما من شأنه أن يترتّب عليه عدم تدخّل البابا في الشأن السياسي الزماني، وكذلك عدم تدخّل الإمبراطور في الشأن الديني. ومعلوم أنّ الإصلاح الديني، بالمعنى السالف الذكر، هو الذي تحقق في التاريخ. ومن ثمّ ردّ الاعتبار للفرد داخل المجتمعات الأوروبية

¹ - انظر:

Réforme. (1998). Dictionnaire encyclopédique Larousse. Paris: Editions Larousse Bordas.

² - استفدنا، ههنا، من:

Vogler, B. (2008). Réforme. In Encyclopædia Universalis, (Corpus 20: pp368-374). Paris: Editions.

واستعاد الحق في حرية الاعتقاد وفي ممارسة ما يراه من طقوس التدين دون الإذعان لسلطة البابا مهما كان صرْبُها مادية أو رمزية. «وهكذا نلاحظ كيف أنّ قوّة ثلاثة بدأت تظهر في هذا السياق، لتُشوّش على التقابل السابق بين السلطة الزمنية والسلطة الروحية، إنّها قوّة الفرد الذي صار يراقب بمفرده تواصله مع الله، والذي قد يصبح بإمكانه في مرحلة ثانية الانفراد بمراقبة مساحات أخرى غير خاضعة لهيمنة السلطات القديمة. فعبارة "فرد" "Individu" لم تكن في البداية إذن، سوى اسم الإطار الذي يسمح بحماية التجربة الدينية من تدخلات السلطة السياسيّة. إلا أنّ هذا الإطار، يمكن أن يتطور ليصبح عندئذ إطارا يحمي الإنسان من الدولة ومن السلطات الكنسية على حدّ سواء» (تودوروف، 2007، ص 64).

ويظهر من مقالة "الحدّ الفاصل" الذي صاغها لوثر، أنّ الفرد الأوروبي أصبح قادرا على التمييز بين "القوانين الوضعيّة" و"العقائد الدينيّة"، من قبيل التفريق بين "الجريمة" في معناها القانوني، وهي ظاهرة تقاومها الدولة من ناحية و"الإثم" في دلالاته الدينيّة، وهو تصرّف يُحتكم فيه إلى الضمير الديني الفردي من ناحية أخرى. ومكّن التمييز المذكور من إرساء تمييز آخر مهمّ سوف يتحقّق في القرون الموالية بين "الدولة" و"المجتمع المدني".

أمّا الحيّز الزمني لحركة الإصلاح الديني الأوروبي، فقد رأى فوغلر (Vogler, 2008, vol 20, p 368) حصره بين سنتي 1517 و1570، رغم أنّه لم يقدّم مبررات صريحة لهذا الضبط الزمني الدقيق³. لكنّ المهمّ بالنسبة إلينا أنّ حركة الإصلاح لم تكن حدثا عابرا في تاريخ الكنيسة الرومانيّة، بل إنّ استغراقه مدّة تفوق نصف قرن من الزمان، من شأنه أن تترتّب عليه تحولات مهمّة طبعت التاريخ الكنسي الحديث ابتداء من القرن السادس عشر. وقد سمح الامتداد الزمني المذكور بانخراط عدّة فئات اجتماعية في "مشروع" الإصلاح الديني من داخل الكنيسة الرومانيّة الكاثوليكيّة، إذ أسهم قطاع مهمّ من رجال الدين الشبان في الترويج لحركة الإصلاح، خاصة من تلقّى منهم تكوينا بإحدى الجامعات اللاهوتيّة، أضف إلى ذلك طبقة النبلاء وأنصار النزعة الإنسيّة (les humanistes) والطبقة الاجتماعيّة الوسطى من البرجوازيّة. وبذلك، تغلّغت حركة الإصلاح الديني، على التدريج، في النسيج الاجتماعي، ممّا مكّن من انتشارها وصمودها أمام ردود فعل الكنيسة الرومانيّة المناوئة لهذه الحركة. وتكفي الإشارة، وهنا، إلى أنّه في حوالي سنة 1540، كانت هناك 51 مدينة من الإمبراطوريّة الأروبيّة الكبرى (من مجموع 65 مدينة) تبنت مبادئ الإصلاح الديني البروتستاني (Vogler, 2008, vol 20, pp 368-369).

³ - تجدر الإشارة إلى أنّ لوثر، في سنة 1517، علّق مقالاته الخمسة والتسعين على باب كنيسة وتنبارغ (Wittenberg) في ألمانيا.

2- في أهمّ دواعي الإصلاح الديني:

حسبنا في هذه الدراسة الوقوف عند أهمّ الدواعي التي حملت بعض رجال الدين المسيحيين على وضع مشروع إصلاح، يدعو إلى مراجعة هيكله الكنيسة الرومانيّة، ويعيد النظر في طبيعة السلطات وحدودها الممنوحة للقائمين على تلك الكنيسة من البابا والكرادلة والقساوسة وغيرهم. ويحسن التنبيه، هنا، إلى أنّ ما سنسوقه من أسباب الإصلاح الديني لم تظهر فجأة وبصفة متزامنة، بل هي نتيجة تراكمات ممتدّة في الزمان لما عرفته الكنيسة من أزمات وأخطاء كانت عاجزة عن حلّها أو تلافيها، أو لم تكن لها إرادة ذاتيّة للإصلاح قبل فوات الأوان، وإن كان الإصلاح الديني الاحتجاجي أو البروتستاني سيخرج من رحم الكنيسة الرومانيّة ذاتها. وبالإمكان ردّ دواعي الإصلاح الديني الحديث في أوروبا إلى النقاط التالية:

- رغبة قطاع واسع من المسيحيين، ومن ضمنهم عدد من رجال الدين، في الانعتاق من سلطة الكنيسة وتسلّطها ووصايتها عليهم. وقد قوي ذلك الشعور بالانعتاق في ضوء إمعان الكنيسة الرومانيّة في مناوأتها للعلم والعلماء، وتعمّدها إحراق عدد منهم أحياناً بدعوى مخالفتهم لتعاليم الكنيسة المقدّسة، فضلاً عن إحراق كتبهم. ويكفي أن تُلصق تهمة "الهرطقة" (Hérésie)⁴ بعالم من العلماء، حتى يلقي حتفه. وكان ذلك مصير رجل الدين التشيكي جون هوس (John Huss) (ت- 1415) بعد أن أهدر مجمع القسطنطينيّة (انعقد بين سنتيّ 1414 و1418) قراراً بحرقه حيّاً أمام العامّة لمناصرته آراء المصلح الأنكليزي جون ويكليف (Jhon Wyclif) (ت- 1384)⁵.

- وجود تيّارات متصارعة داخل الكنيسة الكاثوليكيّة. وأضحت هذه الظاهرة مستفحلة خاصة في أواخر القرن الرابع عشر إلى حدّ ادّعاء أكثر من بابا - في الوقت نفسه- الأحقيّة بزعامه الكنيسة الكاثوليكيّة، وهذا ما حصل فعلاً في التاريخ، إذ كان أربيون السادس (Urbain VI) (ت- 1389) بابا في روما، وفي الوقت ذاته أعلن كليمانس السابع (Clément VII) (ت- 1394) نفسه بابا في مقاطعة أفينيون الفرنسيّة (القاسمي، 1994، ص 95) ولاشكّ في أنّ مثل هذه الأحداث تطعن في مصداقيّة الكنيسة الكاثوليكيّة، وتنفّر أهل الإيمان من تعاليمها، ممّا يفسح المجال واسعاً أمام إمكانات نقدها والتجرؤ على فضح ممارساتها الدنيويّة التي لا صلة لها بالشؤون الدينيّة.

⁴- نيّه يوسف فان آس (Joseph Van Ess) إلى أنّ كلمة "هرطقة" تعني في أصلها اليوناني «فعل» الاختيار، حيث كانت الكلمة مجردة من كلّ المعاني السلبية (...). فقط مع آباء الكنيسة سوف تعرف الكلمة مضمونها آخر مرادفاً للاختيار السيئ أو الأخرق». (فان آس، 2000، ص 11). ومعروف أنّ الهرطقة في المسيحيّة ترادف "البدعة" في الإسلام.

⁵- من أهمّ آرائه الإصلاحية أنّ المؤمن المسيحي يتحصّل على "النعمي" (la grâce) من الربّ لا من البابا، ومن ثمّ فهو لا يحتاج البتّة إلى وساطة الكنيسة.

- تعاضم تيوقراطية الكنيسة الرومانية؛ أي رغبتها في جعل السلطة الروحية التي تحتكرها شاملة ومتضمنة للسلطة الزمانية. وقد كان ذلك منذ وقت مبكر من تاريخ المسيحية. فقد أظهرت الكنيسة الرومانية سنة 754 وثيقة تدعى "هبة قسطنطين" (la Donation de Constantine)، وهي تشرع لسيادة الكنيسة على كل المناطق الأوروبية بدون استثناء (تودوروف، 2007، ص 62).

هذه إذن، أبرز الدواعي المباشرة التي دفعت إلى ظهور حركة الإصلاح الديني البروتستاني منذ بدايات القرن السادس عشر للميلاد. ولا يخفى أنّ هناك أسبابا أخرى غير مباشرة كانت مؤثرة جدًا في انطلاق حركة الإصلاح من بينها بالخصوص تنامي الوعي بأهمية العلوم والمعارف في حياة الإنسان الحديث، خاصة منها العلوم الصلبة أو الصحيحة. وعدل الناس، على التدرّج، عن العلوم الدائرة في فلك الميتافيزيقا.⁶

3- أسس الإصلاح البروتستاني:

لقد عرفت أوروبا في النصف الأول من القرن السادس عشر عددا من المصلحين الدينيين، لقي عدد قليل منهم شهرة منقطعة النظير، حتى إنه أسندت إليهم لاحقا كنائس بأسمائهم. ومن هؤلاء نذكر بالخصوص الألماني مارتن لوثر والفرنسي جون كالفن (ت 1564) والسويسري أوليش زفينقلي (Ulrich Zwingli) (ت 1531) وأيضا مارتن بوسر (Martin Bucer) (ت 1551) من مقاطعة الألزاس، مع اختلاف بينهم في درجة التأثير التي أحدثها كل واحد منهم في واقع الكنيسة الرومانية في عصورهم وفي العصور الموالية.

لقد كان لوثر⁷ جريئا في التصدي للهرطقات الكنسية المسيحية، وهو ما عبّر عنه في مقالاته الخمسة والتسعين (95 thèses) التي كتبها وعلقها على باب كنيسة وتبارغ في أكتوبر 1517، متحديا بذلك السلطة العليا للكنيسة ممثلة في البابا وفي مجمع الكرادلة معا، إذ انتقد في هذه المقالات تعاليم الكنيسة المغلوطة وكشف عن جشعها وتعلقها بجمع الأموال الطائلة وإنفاقها على المصالح الشخصية للهيئات العليا للكنيسة الرومانية. ومن أهم الآراء التي تضمنتها تلك المقالات نذكر خاصة:⁸

- طلب المؤمن المغفرة من خطاياها، يكون من الرب لا من البابا (المقالة السادسة).

⁶- للتوسع في دراسة أسباب الإصلاح الديني بأوروبا راجع على سبيل المثال:

Chaunu, P. (1975). *Le temps des réformés: la crise de la chrétienté, l'éclatement (1250-1550)*. Paris: Editions Fayard.

⁷- انظر في هذا السياق:

Febre, L. (2008). *Martin Luther: un destin*. Paris: Presses Universitaires de France.

Linhard, M. (1991). *Martin Luther: un temps, une vie, un message*. Genève: Edition Labor et fides,

⁸- راجع النص الكامل لهذه المقالات باللغة الفرنسية على الموقع الرسمي للكنيسة الأنجليكانية بألمانيا: www.ekd.de

- إنَّ من يبيع صكوك الغفران (les lettres d'indulgences) أو يشتريها طمعا في الخلاص يُعتبر ملعونا (المقالتان 31 و32).

- على المسيحيين أن يعلموا أنَّهم أحرار في طلب المغفرة، وليسوا ملزمين بذلك أبداً (المقالة 47)

- إنَّ الكنز الحقيقي للكنيسة هو الإنجيل المقدَّس فقط (المقالة 62)

- اللعنة لكلِّ من يتكلم ضد الغفران الرسولي (apostolique) (المقالة 71)

- ألا يكون للكنيسة غُنى كبير لو أنَّ البابا، بدَل أن يمنح غفرانه وشفاعته مرّة واحدة للمؤمن، يقوم بتوزيعها مائة مرّة كلَّ يوم على كلِّ أهل الإيمان؟ (المقالة 88)

- يجب حتّى المسيحيين على أتباع قائدهم المسيح (المقالة 94) وعلى العروج إلى السماء بواسطة المَحَن (Tribulations) لا بالركون إلى طمأنينة وليدة سلام مغلوط (المقالة 95)

هذه عيّنة من المهام الإصلاحية التي دعا إليها لوثر من خلال مقالاته الخمسة والتسعين. والناظر فيها يدرك أنّ لوثر شدّد على ثلاثة أغراض في عمله الإصلاحى الدينى؛ أولها حظر بيع صكوك الغفران؛ وثانيها الدعوة إلى إرساء إيمان فردي دون أية وساطة كهنوتية (الخلاص يتحقّق بالإيمان لا بصكوك الغفران)؛ وثالثها التخلي عن عدد من العقائد المسيحية التي تستثمرها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في جمع المال، وفي مقدمتها عقيدة المطهر (le purgatoire) التي كانت محور عدّة مقالات (مثل المقالات عدد 15 و16 و17 و18 و19 و22 و27 و29 و35).

وجلي أنّ الاعتراض على قسم مهمّ من العقائد المسيحية، يترتّب عليه بالضرورة الطعن في عصمة المجامع المسكونية في ما تتخذه من قرارات بشأن ما تصطنعه من عقائد. فضلا عن ذلك، اعتمد لوثر منهجا في التعليم الدينى مخالف للتعليم الدينى الكنسى الرومانى، وهذا ما تجسّد فعلا حينما أصدر سنة 1529 "كتاب التعليم المسيحى الصغير" (le petit catéchisme)، وقد حرّره بلغة سهلة المأخذ مستعملا تعابير موقّعة حتى يتيسّر حفظه، خاصّة أنّه موجّه إلى أرباب العائلات يتّخذونه أداة بيداغوجية ومعرفية لتعليم أبنائهم مبادئ الديانة المسيحية بعيدا عن إملاءات الكنيسة الرومانية، وما تمثّله من احتكار للمعرفة الدينية. وقد قسم لوثر كتابه

المذكور إلى ستة أقسام⁹ عرض فيها، من بين ما عرض، للوصايا العشر (les dix commandements)¹⁰ وللعقيدة المسيحية ولسرّ التعميد (baptême le sacrement du).

والمستفاد من هذا الكتاب، أنّ لوثر تخلّص من عدّة أسرار (sacrements) مسيحية، ولم يبق منها إلا على التعميد وعلى الإفخارستيا (Eucharistie)¹¹. فضلاً عن ذلك، أهمل النذور الرهبانية (les vœux monastique) ومن بينها عزوبية القساوسة، بل إنّ لوثر نفسه، وهو رجل دين، تزوّج سنة 1525 حين بلغ من العمر 42 سنة.

وفي إطار هذا التوجّه الإصلاحية نفسه، أخضع لوثر عدداً من أسفار "العهد الجديد" للنقد الجذري بطريقة غير مسبوقة في تاريخ المسيحية. من ذلك أنّه اعتبر ما جاء في سفر "رؤيا يوحنا" (Apocalypse de Jean) لا يمكن أن يكون صادراً عن روح القدس (le Saint Esprit) (Vogler, 2008, vol 20, p 368-369).

ومن البديهي أن تشنّع الكنيسة الرومانية بمارتن لوثر، لأنّه هزّ صورتها أمام عامّة المؤمنين المسيحيين وبتّ فيهم وفي غيرهم من رجال الدين الشجاعة لنقدها والتجرؤ عليها. فقد أدان البابا لايون العاشر (Léon X) (ت 1521) المقالات الخمسة والتسعين المذكورة إدانة رسمية سنة 1520، وفي السنة الموالية أصدر قراره بفصل لوثر عن الكنيسة الرومانية فصلاً نهائياً. ولكنّ لوثر ألقى بقرار البابا في النار أمام الملأ.

والحاصل ممّا سبق، أنّ لوثر كان يحمل مشروعاً إصلاحياً دينياً أقامه على مراجعات لعقائد مسيحية شتى من داخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية دون أن يعلن انسلاخه عنها. ولعلّ لوثر نفسه لم يكن يتوقع، في البدء، أن يفضي مشروعه الإصلاحية الأول (المقالات الخمسة والتسعين) إلى ما أفضى إليه من نتائج أبرزها طرده من الهيئات الكنسية الرومانية. ولكن رغم ذلك، بقى لوثر ثابتاً على مبادئه الإصلاحية، بل إنّ إصراره على تحقيق الإصلاح الديني جعله يتفرّغ للتأليف في هذا الباب¹² وكان من ثمار ذلك أن عرفت أفكار لوثر الإصلاحية رواجاً منقطع النظير في مختلف أنحاء أوروبا. وقد أسهمت الطباعة، الحديثة العهد في ذلك الوقت،

⁹- راجع النصّ الفرنسيّ الكامل لكتاب لوثر على الموقع الرسمي للكنيسة اللوثرية: www.egliselutherienne.org

¹⁰- من هذه الوصايا: يجب علينا أن نحبّ الرب وأن نثق به - لا نقتل أبداً- لا تشهد زوراً ضدّ أخيك في الإنسانية- يجب علينا أن نخشى غضب الربّ وآلا نخرق شريعته.

¹¹- الإفخارستيا: هي أحد الأسرار السبعة في الكنيسة المسيحية. ويحتفل بها بتناول بعض الخبز وشيء من الخمر، باعتبارهما رمزيّن لجسد المسيح ودمه.

¹²- من الكتب التي وضعها لوثر بعد فصله عن الكنيسة:

- De la papauté qui est à Rome.
- A la noblesse chrétienne de la nation allemande.
- La captivité babylonienne de l'Eglise.
- De la liberté du chrétien.

في تحقيق الرواج المذكور، حتى إنّ لوثر نفسه اعتبر «المطبعة الفعل الأكبر والأقصى للنعمى الإلهية la grace divine التي بها يتحقّق تأثير الإنجيل في الضمائر» (Vogler, 2008, vol 20, p 368).

وإذا ما جوّدنا النظر في آراء رجل الدين الفرنسي جون كالفن (Jean Calvin) بشأن إصلاح الكنيسة الكاثوليكية،¹³ ألفيناها غير بعيدة عمّا قرّره لوثر من إصلاحات، خاصة أنّ كالفن ذاته أعرب عن إعجابه بآراء لوثر الإصلاحية دون أن يمنعه ذلك من توجيه بعض النقود إليه. وعلى الرغم من أنّ لكالفن تكوينا في العلوم القانونية واللغات، فإنّه اتجه حوالي سنة 1531 إلى دراسة علم اللاهوت، ونذكر ههنا أنّه وضع تفسيراً لمزامير داود (Psaumes). وحينما صدع بآرائه الدينية الإصلاحية ناوآته السلطة السياسية والدينية الرسمية وأجبر على نيل التقاعد الوجوبي. فسنحت له الفرصة للاختلاف إلى مكتبة أنغولام (Angoulem) في جنوب غرب فرنسا، وتفرّغ للتأليف. وفي هذه المرحلة من حياته أصدر كتابه المهمّ "مؤسّسة الديانة المسيحية" في مدينة بال (Bâle) السويسرية سنة 1536، وقد كتبه باللغة اللاتينية، ثمّ نقله هو نفسه إلى الفرنسية سنة 1541 بعد أن أضاف إلى الأصل اللاتيني عدّة مواد.

وعندما نتفحص الكتاب المذكور، نقف على عدّة آراء في الإصلاح الديني دعا إليها كالفن سواء باقتراح البديل الإصلاحي أو بنقد واقع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ونختزل أهمّ ما تضمّنه هذا الكتاب من آراء في النقاط التالية:

- ينبغي أن توجّه اعترافات المذنب إلى الربّ وحده المطلّع على أفكارنا وسرائرنا".¹⁴ (8-4-9)
- "الكنيسة المزيفة هي التي يكون فيها البابا بمثابة نقيض المسيح، (Autéchrist) لأنّه يمارس استبداده المطلق في وضع عقائد جديدة متّصلة بالإيمان". (4-2-11)
- يعني الإنجيل إشاعة النعمى (grâce) التي مُنحت إلى المسيح، وهذه النعمى لا تُطلب من الأنبياء الذين يزعمون منح المغفرة كي يتخلّص المؤمن من خطاياها". (2-9-3)

¹³- اعتمدنا بالأساس في عرض آراء كالفن الإصلاحية على الفصل الذي حرّره أندري دوما (André Dumas) عن الرجل ضمن: Cadier, J et Dumas, C. (2008 b). Jean Calvin (1509-1564). In *Encyclopædia Universalis*. Paris: Editions Universalis. Corpus 4, pp: 880-884

ولكن ذلك لم يُعفنا من الاطلاع المباشر على الكتاب الرئيسي الذي وضّحه جون كالفن، وهو بعنوان: Institution de la religion chrétienne (778 p).

وقد رجعنا إلى الطبعة التي صدرت بجنيف سنة 1988 راجع: (Vogler, 2008, vol 20, p 368)

¹⁴- تعني الإحالة في كتاب كالفن، مثل (8-4-9) ما يلي: الكتاب 8، الفصل 4، الفقرة 9

- "بابا الكنيسة الرومانية هو، حسب وصف القديس بولس، نقيض المسيح". (4-7-25)
- "إنّ البابوايات، على امتداد خمسمائة سنة كانوا يُخضعون رعايا الأباطرة ويتحكّمون فيهم". (4-11-13)
- "عقيدة المطهر (Purgatoire) هي اختراع شيطاني للقضاء على صليب المسيح". (3-5-6)
- "إنّ الكتابات المقدّسة تعلّمنا أمرين: أحدهما أنّها تطبع في قلوبنا محبة العدل، وثانيهما أنّها تمدّنا ببعض القواعد لإتباع العدل". (3-6-2)

- "إنّ النذر (le Vœu) يمكن المؤمن من معرفة الربّ الذي يجد لذّة في أن يُطاع". (4-13-2)

والمستفاد من هذه العيّنات أنّ كالفن وجّه نقدا شديدا إلى البابوية الرومانية لاستغلالها مشاعر المؤمنين لما يخدم مصالحها، لتواطئها مع السلطة السياسيّة المستبدّة، فضلا عن دعوة كالفن إلى أن تكون تعاليم الديانة المسيحيّة مستمدّة من الكتابات المقدّسة، وتخصيصا من الإنجيل، وهو ما يعني رفضا للعقائد العديدة التي اصطنعها القائمون على الكنيسة، وذلك بمباركة البابا نفسه.

ومن الأعمال الإصلاحية المأثورة عن كالفن - حينما كان مقيما بجنيف السويسريّة في رعاية المصلح الديني غيوم فارال (Giullanne Farel) (ت 1565) - أنّه قام بإصلاح الكنيسة المسيحيّة هناك وبإعادة هيكلتها على أساس قاعدة جديدة في الإيمان، وهي أنّه على المؤمن المسيحي أن يحيا وفق تعاليم الإنجيل فقط. وهذا ما اقتضى من كالفن وضع "كتاب التعليم المسيحي" (Catéchisme) بما ينسجم والمبادئ الإصلاحية الدينيّة التي انتصر لها وعمل على رواجها بدعم من السلطات السياسيّة السويسريّة وقتئذ. وقد صدر الكتاب المذكور في طبعة كاملة سنة 1542، وبناه كالفن على ثنائيّة السؤال والجواب في أهمّ قضايا العقيدة المسيحيّة التي ورّعها على 55 فصلا. وكان محتوى هذا الكتاب يفسّر للأطفال والشباب إثر الفراغ من أداء شعائر يوم الأحد.

ولعلّ من أهمّ التنظيمات (les ordonnances) التي أدخلها كالفن على هيكله الكنيسة هي ضبط المهام التي يقوم بها رجال الدين القائمين على الكنيسة من قساوسة (pasteurs) أو شماسين إنجيليين (diacres) وغيرهما دون أن يحصل أي تداخل في الوظائف (تنظيم الأسرار - sacrements - دراسة الكتاب المقدّس - la Bible - تعليم الشبيبة - تهذيب نفس المؤمن ...).

والجدير بالملاحظة أيضا، أنّ كالفن كان معتدلا في مواقفه الإصلاحية الدينيّة، إذ لم يذهب بدعوته الإصلاحية إلى الحدّ الأقصى الذي بمقتضاه يمكن أن يهزّ أسس الاعتقاد المسيحي المستمدّة من الإنجيل. ولذلك

نراه يعترض على مذهب ميشال سارفات (Michel Servet) (أحرق حيًا سنة 1553) القائم على نفي التثليث استنادا إلى كتاب ألفه سنة 1531، وهو في سنّ العشرين، بعنوان "أخطاء التثليث". وقد حاول كالفن إثناءه عن أتباع هذا المذهب والعدول عنه، إلا أنّ الشاب الأراغويني لم يتزحزح عن موقفه ذلك ورفض مقابلة كالفن والتحاوّر معه في المذهب. ورغم ذلك، ندّد كالفن بمحاكمة سارفات الجائرة وإحالاته على المحرقة (Bücher).

لقد تمكّن كالفن، بمساعدة عدد من رجال الدين المصلحين، من تأسيس أكاديمية جنيف سنة 1559، حيث كانت تُدرّس علوم اللاهوت والفلسفة واللغات والرياضيات، ومن شأن ذلك أن يمكّن رجال الدين المتخرّجين من هذه الأكاديمية من تحصيل معرفة حديثة تؤهّلهم للقيام بوظيفتهم على الوجه المطلوب، ومن بينها نقد الكتابات المقدّسة.

إنّ الانتشار السريع لآراء كالفن الإصلاحية في عدّة مقاطعات ودول أوروبية، كان من الأسباب المباشرة التي أدّت - بعد كالفن- إلى نشأة "الاتّحاد الكلفاني" (le calvinisme) ومن المبادئ الاعتقادية التي انتصر لها هذا الاتّحاد هو مبدأ "المجد للربّ وحده"، وهو ما يعني أنّ الإنسان حرّ في حياته لا يخضع لأيّ ضرب من ضروب التسلّط الديوي مهما كان شكله أو مصدره.¹⁵ فضلا عن ذلك، فإنّ الكنيسة الانقليكانية في أنقلترا اعتمدت بالأساس على المبادئ الإصلاحية الكالفينية في صوغ قانون الإيمان المتكوّن من 39 فصلا (Cadier, 2008 a, vol 4, p884).

والذي نخرج به بعد عرض أهمّ التوجّهات الإصلاحية الدينية عند كلّ من لوثر وكالفن، أنّ حركتهما الاحتجاجية (البروتستانتية) ضدّ الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لم تكن ترمي البتّة إلى القطع معها، بل كانت تنشد إعادة هيكلة الأكليروس وتقديم تنظيم جديد للمؤسسة الكنسية من جهات المهامّ والعلاقات التراتبية للقائمين على شؤونها، مع التشديد على أن يكون مرجع المؤمن المسيحي في التعاليم الدينية التي يتبّعها هو الإنجيل. ومن ثمّ يتسنى له الانعتاق من أسر العقائد الدينية المتزمتة والمقالات الدينية الدوغمائية.

4- ردود فعل الكنيسة على الإصلاح الديني البروتستاني:

اتّسمت ردود فعل الكنيسة على الإصلاح البروتستاني بالعنف الشديد في كلّ أشكاله الرمزية والمادية، من ذلك إحراقها لكتب لوثر، وهو لا يزال على قيد الحياة، بل إنّ الكنيسة الرومانية أصدرت قرارات بإحراق كلّ من يروّج لنظريات علمية حديثة تتعارض وتعاليمها الدينية، وأشهر مثال على ذلك إحراقها للفيلسوف وعالم

¹⁵ - للتوسّع راجع فصل (calvinisme) بقلم جون كاديي وأندري دوما في:

Cadier, J et Dumas, C. (2008 a). Calvinisme. In *Encyclopædia Universalis*, Corpus 4: pp: 884-887

الفلك الإيطالي جيوردانو برونو (Girdiano Bruno) (تـ 1600)، لأنه أخذ بنظريات كوبرنيك (Copernic) (تـ 1543) بشأن دوران الأرض.

ولجأت الكنيسة الرومانية إلى أصحاب القرار السياسي تطلب منهم العون لتصفية الحركات الإصلاحية البروتستانتية وللقضاء عليها بصفة نهائية. وهذا ما تمّ فعلاً سنة 1572 حين أدى التواطؤ بين السلطتين الدينية الكاثوليكية والسياسية إلى ارتكاب مجزرة رهيبة بسانت بارتيليمي (Saint-Barthélemy) إحدى جزر الأنتيل (Antilles) الفرنسية، راح ضحيتها عدّة آلاف من المسيحيين البروتستانتين.¹⁶

وعلى صعيد آخر، ظهرت اتجاهات دينية حاولت الدفاع عن بعض مبادئ الكنيسة الكاثوليكية الرومانية وبيان صوابها وضرورتها في حياة المؤمنين المسيحيين. وضمن هذا المنظور تأسست جماعة اليسوعيين (Jésuites) بإسبانيا سنة 1540، وهي تدافع عن رؤية دينية جامعة بين التعصّب والتطرّف والمغالاة.¹⁷

ولم تتخلّ الكنيسة الرومانية في القرون الموالية عن ردّها فعلها العنيف تجاه الإصلاح البروتستاني؛ ففي سنة 1864 أصدر البابا بيوس التاسع (Pie IX) (تـ 1878)¹⁸ ما يُعرف عند الدارسين بـ"لائحة الأضاليل" (Syllabus)، وهي تتضمن ثمانين بنداً¹⁹ مدارها على إدانة «العقلانية والمادية والإيمانية (...) ونظرية الدولة والاشتراكية والاقتصاد الليبرالي (...) وحرية الضمير والمعتقد والتعبير (...) وعلمة الدولة (...) وتقدم العلوم وتطور مناهج البحث، وما يترتب عنهما من مراجعة المسلمات التي استقرت في ضمير المؤمن (...) ومراجعة تنظيم مجالات الحياة الاجتماعية وبالخصوص مجاليّ التعليم والزواج وفق مبادئ القانون الطبيعي» (القرواشي، 2005، ص 36).

والحقّ أنّ الكنيسة الرومانية أرادت أن تسبح ضدّ تيار الإصلاح الديني منذ بدايات حدوثه، وهو ما يظهر في ما اتخذته من قرارات في المجامع (Conciles) التي تزامنت مع حركة الإصلاح البروتستاني في النصف الأوّل من القرن السادس عشر أو التي انعقدت في القرون الموالية. فمنذ مجمع ترانت (Trente) (1545-1545)

¹⁶ - راجع: (القاسمي، 1994، ص 113) وانظر أيضاً:

Crouset, D. (1994). *La nuit de Saint-Barthélemy: un rêve perdue de la Renaissance*. Paris: Editions Fayard, (657)

¹⁷ - انظر (القاسمي، 1994، ص 116-117). وقد نبّه المؤلف إلى أنّ اليسوعيين تخلّوا لاحقاً عن نزعة المغالاة في مواقفهم الدينية، واعترفوا بدور العلوم والمعارف الحديثة في تقدّم الإنسان ورُقيّه.

¹⁸ - نبّه حسن القرواشي إلى أنّ هذا البابا لم يكن قادراً «على أن يفهم التحول النوعي الذي طرأ على البنى المؤسسة للفكر الحديث وأن يدرك الأصول العميقة المتحكّمة في العلاقات بين المؤسسات وفي تنظيم المجتمع المدني أو ينتبه إلى تهاافت المنظومة اللاهوتية الكلاسيكية نتيجة التغيير الذي أحدثته تقدّم العلوم الطبيعية والتاريخية». (القرواشي، 2005، ص 22).

¹⁹ - للاطلاع على البنود الثمانين للائحة الأضاليل باللغة الأنغليزية انظر موقع الواب التالي:

www.papalencyclicals.net/Pius09/p9syll.htm

- التمهيد لفلسفة الأنوار في القرن الثامن عشر وما أفضت إليه من قيام الثورة الفرنسية سنة 1789؛ فقد كانت لمفكري الأنوار رؤية مخصوصة للأديان يشف عنها قول تودوروف: «انخرط مفكرو الأنوار في معاينة معتقدات العالم بأسره ووصفها، ولم يكن هدفهم من وراء ذلك رفض الأديان، بل هُدي الناس إلى موقف يتسم بالتسامح وحثهم على الدفاع عن حرية المعتقد» (تودوروف، 2007، ص 12). ويعني ذلك أن حركة الإصلاح الديني البروتستانتية قد هيأت، إلى جانب عوامل أخرى متداخلة، الأرضية المناسبة لتشكّل فلسفة الأنوار، إلا أن هذه الفلسفة تمثلت بمبادئ الإصلاح الديني وتجاوزتها في آن معا. ذلك أن فلسفة الأنوار دعت إلى تحقيق السعادة الأرضية بدل التعلّق بمقالة (الخلاص) المسيحية (تودوروف، 2007، ص 17 وص 98). ثم إن المقدّس (le sacré) لم يعد مرتبطا بالعقائد الدينية وبرجال الدين (يُعتون بالقدّسين)، بل أصبح مرتبطا بـ"حقوق الإنسان". فهذه الحقوق هي المقدّسة (تودوروف، 2007، ص 18 وص 76).

- لم يعد الفضاء مقسّما إلى قسمين: فضاء خاص يتحرّك فيه الفرد في إطار تكريس مقالة حرية الاعتقاد والحرية المدنية، وفضاء قانوني تشرف عليه الدولة، تُطبّق فيه القوانين بطريقة إلزامية، بل انضاف إليهما فضاء ثالث يسمّى "الفضاء العمومي" (l'espace public)، وهو فضاء اجتماعي تسكنه الأعراف والقيم الأخلاقية والسنن وقواعد الاجتماع العام. ومعلوم أن هذا الفضاء كان، قبل حركة الإصلاح الديني البروتستانتية، تابعا لمجال السلطة الروحية للكنيسة الرومانية وخاضعا لقوانينها (تودوروف، 2007، ص 65-67).

- وضع حدّ لمقالة "المملكة المسيحية المقدّسة" التي كانت تروّج لها الكنيسة الرومانية، وشنت عدّة حروب وحملات تبشيرية قصد الدفاع عن تلك المقالة. فحركة الإصلاح البروتستانتية، قوّضت أركان "المملكة" من الأساس، خاصة أن هذه الحركة نجمت من داخل الكنيسة الرومانية ذاتها. ومن ثمّ تولّد وعي جديد قائم على تقديم الاعتقاد القومي على الانتماء الديني؛ فالألماني مثلا هو ألماني في المقام الأوّل قبل أن يكون مسيحيا²³، غير أن ما ذكرنا للتو من نتائج ترتبت على الإصلاح الديني البروتستانتية ينبغي ألا يحجب عنا ما وقع فيه من قصور أو ما ارتكبه من أخطاء في سبيل تحقيقه في الواقع التاريخي. ويكفي أن نلاحظ أمرين في هذا الباب؛ أحدهما أن هذا الإصلاح، خاصّة في مراحل الأولى من تاريخه، قد فُرض على بعض الشعوب بالقوة والعنف. وهذا ما حصل تحديدا في النرويج وإزلندا. فقد كانت الكاثوليكية في هذين البلدين تعبّر عن الانتماء إلى الوطن (Vogler, 2008, vol 20, p 369). أمّا الأمر الآخر، فيتمثّل في استهزاء البروتستانتية بالأديان الأخرى، واتّخاذها نُكّاة لمجادلة خصومهم من الكاثوليكين. فهذا مارتن لوثر نفسه اعتبر البابا رأس "نقيض المسيح" وعدّ الإسلام جسده، بل إن كلّ فريق من الفريقين يتّهم الآخر بـ"الإسلامية". فقد «رأى البروتستانت في الإسلام، وبالتالي في

²³- للتوسّع في هذا الغرض انظر: (القرواشي، 2005، ص ص 249-595)

المصادر والمراجع:

- استانبولي، محمود مهدي، (1977)، ابن تيمية بطل الإصلاح الديني، (ط.1)، دمشق: دار المعرفة.
- بلقزيز، عبد الله. (2009)، رؤية في مسألة الإصلاح الديني، في مجلة "الأداب"، 7 و8، بيروت، ص ص 69-73
- تودوروف، تزيفيتان، (2007)، روح الأنوار (حافظ قوبعة، مترجم)، (ط.1)، صفاقس، (تونس): دار محمد علي للنشر.
- جورافسكي، أليكسي، (1996)، الإسلام والمسيحية، سلسلة عالم المعرفة (عدد 215)، (ط.1)، الكويت.
- شلحد، يوسف، (2003)، نحو نظرية جديدة في علم الاجتماع الديني، (ط.1)، بيروت: دار الفارابي، ص 73
- فان آس، يوسف، (2000)، بدايات الفكر الإسلامي: الأنساق والأبعاد، (ط.1)، الدار البيضاء: منشورات الفنك.
- القاسمي، فتحي، (1994)، العلمانية وانتشارها غربا وشرقا، (ط.1)، الدار التونسية للنشر (سلسلة موافقات).
- القرواشي، حسن، (2005)، الفكر المسيحي الكاثوليكي في مواجهة الحداثة من المجمع الفاتيكاني الأول (1869-1870) إلى المجمع الفاتيكاني الثاني (1962-1965)، (ط.1)، تونس: منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية.
- مسلان، ميشال، (2009)، علم الأديان: مساهمة في التأسيس (عز الدين عناية، مترجم)، (ط.1)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي.
- الموقع الرسمي للكنيسة الأنجليكانية بألمانيا: www.ekd.de
- الموقع الرسمي للكنيسة اللوثرية: www.egliselutherienne.org
- Cadier, J et Dumas, C. (2008 a). Calvinisme. In Encyclopædia Universalis, Corpus 4: pp: 884-887
- Cadier, J et Dumas, C. (2008 b). Jean Calvin (1509-1564). In Encyclopædia Universalis. Paris: Editions Universalis. Corpus 4, pp: 880-884
- Calvin, J. (1988). Institution de la religion chrétienne. Genève: E Beroud.
- Chaunu, P. (1975). Le temps des réformés: la crise de la chrétienté, l'éclatement (1250-1550). Paris: Editions Fayard.
- Collinston, P. (2006). The Reformation: a History Chronicles Book. Random House Publishing Groups.
- Crouset, D. (1994). La nuit de Saint-Barthélemy: un rêve perdue de la Renaissance. Paris: Editions Fayard.
- Febre, L. (2008). Martin Luther: un destin. Paris: Presses Universitaires de France.
- Linhard, M. (1991). Martin Luther: un temps, une vie, un message. Genève: Edition Labor et fides.
- Réforme. (1998). Dictionnaire encyclopédique Larousse. Paris: Editions Larousse Bordas.
- Tallan, A. (2000). le Concile de Trente. Paris: Editions du Cerf. (135).

- Vogler, B. (2008). Réforme. In Encyclopædia Universalis, (Corpus 20: pp368-374). Paris: Editions.
- www.papalencyclicals.net/Pius09/p9syll.htm



MominounWithoutBorders



@ Mominoun_sm



Mominoun

الرباط - المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هاتف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com